ساعة في هياكل الشعراء — ٢

رشيد أيوب

ليوسف البعيني

رشيد ايوب صاحب ديوان — أغاني الدرويش — وأحدُ أعضاء الرابطة القلمية في الولايات المتحدة ناثرٌ مبدع وشاعرٌ رقيقٌ حساس تسربلُ سطورهُ عاطفةٌ مزبدة باليأس والمرارة والحنين، وتبلبل معانيه دمعة ممزوجةٌ بالالم والشوق والتذكار

ما قرأتهُ مرةً إلاّ يقظت في اعماق قلبي أشباح أياميَ ولياليَّ ... تلك الايام والليالي التي كفَّنها الدهرُ بوشاحه القاتم الحزين لتبقى محتفظة بأحلامي الماضية احتفاظ الضريح برفات دفينه

يسمعك نغماً من ألحانه الحنونة فيحملُ روحك الى اماكن حبها وغرامها ... ويحدّثك عن قصةٍ من قصص حياته فيعيد اليك كلَّ ما حجبتهُ الاقدار، وطمرتهُ الشهور والاعوام

يستأثر بميولك ومشاربك كما يريد فتحسُّ بضباب قلبه قد طابقَ ضباب قلبك وبدموع عينيه قد مازجتْ دموع عينيك ... ويصف لك ما يهشُّ نفسهُ من يأسٍ وأسىً فتحبهُ حاثياً ضارعاً، وتعتنقهُ باكياً شاكياً!

يسيرُ في الحفل راكضاً وراء فراشة أحلامه فتتبعهُ ساثراً راكضاً ... ويجثو على ضفات بحيرة دموعه فتجثو معهُ هامساً متمتماً

بينا هو في الحديقة وقد أبكر ناقضاً عن اوراقها غبارَ الليالي ... اذا به يهبُّ صاعداً على سلالم من ضوء القمر ليستشق النجوم بياناً علويًّا، وشعراً معطراً سامياً

هو شاعر ... وللشعراء قوة مجهولة تفعل في الارواح ما لا تفعله قوى البشر وأعمالهم!!

***

انَّ الشاعر الذي تتآلف إحساساتهُ مع احساساتك، وتلاصق جراح نفسه جراح نفسك فتبكيان وتفرحان معاً. هو شاعر يعرف كيف يغوص في عتمة الحياة مستخرجاً منها اسرارها وخفاياها. ورشيد ايوب تقرأه فتخيم عليك غمامة مجهولة كلها تأمل وتساؤل وأحلام

احب الشتاء لانّ له ضباباً كهمي ثقيلاً كئيفْ
وأهوى الربيع فأنفاسه دواء لجسمي الضعيفْ
وأصبو الى الصيف ستأنساً بوحشة ليليَ الطويل المخيفْ
وتشتاق نفسي الخريف وقد تجنّى عليّ زمان الخريف
فيا دهر هل فيك مثلي فتىً يلاقي الرزايا بوجهٍ لطيف ؟

هذه ابيات من ديوانه الاول وهي ساحرة مؤثرة اوردتها هنا لتقرأها معي وتشاركني في التأمل بضباب الشتاء الذي يشبهه الشاعر بهمه الثقيل . ولعمري ان ريشة ترسم عبقريتها الخفية كل ما في الطبيعة من خشيش ، وحبوب ، وارتعاش ، لهي ريشة خلابة لها اصباغها وألوانها . وما من مرة استمدت فيها هذه الابيات إلا اوحى اليّ رنينها الشجي تشابيه جديدة وصوراً مجهولة تفتح في القلب اكمام الشاعرية

لقد كنت اعتقد ان للشاعر سلطة محدودة على نفسية المطالع ، أما رشيد ايوب فله انامل مختلفة عن انامل الكثيرين من الشعراء ، انامل لطيفة ناعمة تلامس ازاهير الشاعرية فتشمها وتصبغها باللون الذي يلائمها ويتفق مع حالتها !

أودّع رزقي عند المساء وأجلس في الروض تحت الشجرْ
وأصغي إلى ما يقولُ المشيبُ بذكر الشباب الذي قد عبَرْ
أغنّي لتأتي بناتُ الخيالِ ويرقصْنَ حولي بضوء القمرْ
فأغنيتي من وداع الخريفِ لأوراقه عندَ وقتِ السفرْ
تاليْ اسميها فنيها الفراقُ وفيها البقاء ، وفيها العبرْ

إن الشاعرَ السامي لا يكتفي باعطائك صورةً عمّا يحسُّ ، بل يأبى بجملك تشعرُ بما يشعر، وتتساءل عمّا يتساءل ، وتهتمُّ بما يهتمّ . فتضفي على صفحة خيالاته وترتفع معهُ إلى أفقه الاعلى. أفلستَ تجلسُ مع رشيد أيوب تحتَ ظلال شجرة الليل وتغنّي معهُ لبنات الخيال الراقصات في ضوء القمر اغنية الماضي الملتفع بحجاب الذكرى والمستتر بأوراق خريف الحياة ؟

وإنْ تكن في الحياة مرارة قاسية فهيَ مرارة الذكرى . هناكَ منْ أظلمَ ليله فبات مسهداً يبكي على ماقات . وهناك منْ يحيا وحياتهُ دائماً سلسلة تجرّها اقدامُ اشباح الماضي . فيقتلهُ حنين ! وتقتلهُ تذكار !!

***

في بدء الجيل الماضي رَنَّحَ الادب المتجدّ في الغرب القصيدة الرائعة التي نظمها الشاعرُ المشهور — الاب لاَبِنَّه — وسمّاها يومئذ — نشيد المنفى — وحتى الآن والنقادُ الفريون

وبينهم الكاتبُ الكبير اسطيفان زفيج، يتناولونها بالمديح والاطراء. وهم لا يعلمون ذلك الا لكون القصيدة تعبرُ عن حنين المهاجر، وعن شوقهِ إلى حمى الطفولة المحفوفة بذكريات الماضي.

أما قصيدة الشاعر — لا بأس — ففي هذه :

— لقد حامَ على وجهي في المهاجر . . فخذ اللهمّ بناصره . . إنه منفيٌّ مسكين —

لقد مررتُ بين الناسِ ، فحدقوا بي وحدّقتُ بهم . . لكنّنا لم نتلاق بعاطفة — فالمنفى مجهول في كل مكان —

كلَّ يوم عند مغيب الشمس كنتُ أرى أعمدة من الدخان تتصاعدُ من أحد الاكواخ القائمة في قلب الوادي الصغير فأقول في نفسي — بالسعادة من لهُ منزلٌ حقير يأوي اليه عند المساء ويجلس فيه بين اهله وذويه — أما المنفيُّ فشقيٌّ في كلّ مكان ! !

إلى اينَ تذهب تلك النيوم التي تكتسحها العاصفة ، أراني أطردُ مثلها في هذا العالم . . ولكن ماذا يغني كلُّ ذلك — فالمنفى وحيدٌ في كلّ مكان

إنَّ هذا الجدول ينساب بهدوء السهول ، غير أنَّ خريره يختلف كثيراً عن ذلك الخرير الذي كنت اسمعهُ في حداثتي . انهُ لا يعيدُ الى نفسي ادنى ذكرى !

جميلةٌ هذه الاشجار . . ولطيفةٌ هذه الازاهير . . ولكن ليست الاشجار اشجار بلادي ولا الازاهيرُ ازاهيرَ وطني

يسألني الناسُ ما يبكيك ، وعند ما أطلعهم على سبب بكائي لا يذرفُ احدٌ منهم دمعةً حرى توجعاً لي ، ذلك لانهم لا يفهمون احلامي واشواقي !

رأيتُ شيوخاً يحيط بهم بنوهم كما تحيطُ بالزيتونة فروعُها ، ولكنّي لم اسمع احداً من بين هؤلاء الشيوخ ينادي بابنهِ ، ولم ارَ بين هؤلاء الفتيان منْ يدعوني اخاه : :

وشاهدتُ عذارى كثيرات يبتسمنَ ابتسامة الحبّ لمن قد اختزنهُ من بين الرجال ولكني لم ارَ ثغرَ واحدة يفترُّ لي عن ابتسامة !

وشاهدتُ شباناً يتعانقون فرحين باجتماع شملهم . . ولكن وددتُ لو قبضَ واحدٌ منهم على يدي مصافحاً

اولاهُ ! انَّ المنفيَّ شقيٌّ في كل مكان ! فلا أصدقاء ولا زوجات ولا إخوة إلا في الوطن !!

***

خفّفْ عنك أيها المهاجر المسكين ، وامسكْ عنانَ تأوهاتك . . الكل منفيٌّ مثلك . . والكل يشاهد أهله يمرون ويتلاشون !

ليس الوطن في هذا العالم ، رغبةً يحاول المرء ان يجدهُ . وما موطنُ الانسان على الارض إلا كبيت ليلةٍ واحدة !

***

وانا ما اوردت ترجمة هذه القصيدة الا لاقابل بينها وبين هذه الابيات التي ارسلها روح رشيد ايوب وهي تعبر عن حنين المهاجر الذي يهيم على وجههِ في الابعاد القاصية . . . وعندي ان قصيدة الشاعر اللبناني الحساس أرق عاطفة واحسن تصويراً ، وهي في ما يلي

ذكروه بالحمى فارتشا وهو كالمجنونْ
مغرمٌ في الحبِّ قدماً قد نشا قلبهُ المحزونْ

لا تلوموهُ فذا صبٌّ سقيمْ نازحٌ مسكينْ
ليس يحييهِ سوى ذاك النسيمْ في ربى صنينْ

يرقبُ الافلاك ان جنَّ الظلام في حشاهُ نارْ
وهو يحسو الخمرَ مضنىً لا ينامْ يُنشدُ الاشعارْ

لم تزدهُ الكأسُ الا عطشا أبداً ظمآنْ
يتغنى عمرهُ كيفَ تمشي بربى لبنانْ

***

ورشيد ايوب صاحب ديوان — أغاني الدرويش — عدا فنه الانيق وريشته الفخمة ، نفسية ملتهبة بدثار أسود تنشرُ دائماً على اشعاره الرقيقة غبرةَ الحزنِ والكآبة كانها شجرة الصفصاف النابتة على ضفافِ جدولِ الدموع ... أو البلبلُ الشريد الذي أضاع أليفهُ الحبيب !!

وهذه النفسيةُ التي تنمرُ جميع نواحي الشاعر قد أوتيتْ حظاً وفيراً من الفهم والادراك. فرشيد أيوب ناثرٌ مبدع يحملك نثرهُ الشعريُّ المنسول من جمير الآلهة على الاعجاب والتفكير . وإن كنت أجد نظيراً للشاعر البقري المشهور — سولي برودُومْ — في الادب العربي فهو رشيد أيوب . وأنا لو كنت اعتقد بمذهب — السيريئيسم — لقلتُ أنَّ روحَ الشاعر الفرنسي حيا اليوم في الشاعر اللبناني النابغة ... فان في نفسية رشيد ايوب حيرة تشابهُ حيرة — سولي برودومْ — وترتعش مثلها في سطورها وأبياتها

والمقاطع الآتية ما احببتُ أن اختارها من قصيدته الرائعة — الضوء البيد — وهي منشورة في ديوان (أغاني الدرويش) إلاّ لاعطي القارىء معنىً كاملاً ، وصورةً شفافة الخطوط والالوان لهذا الشاعر الذي يمثل شعرهُ العذب يقظة في الادب العربي

لبستْ شعري الوشاحا آهِ ما أحلى المشيبْ
نامَ قلبي واستراحا وقضى ذاك الغريبْ
في الأنامْ

فاحضروا قبري بجانبْ خيمتي عندَ الكرومْ
حيثما كنتُ اراقبْ في دجى الليل النجومْ
لا أنامْ

دقةُ الناقوس عندي كلُّ انغامِ الطربْ
فاضربوهُ عند لحدي يومَ تهريجِ الكُربْ
بالحمامْ

لكِ يا نفسي حياةً بعدما ألفى العصا
فالاماني جائساتٌ عليها بالحصى
كي تنامْ

***

ان اول ما يتطلبهُ الفنُّ من الشاعر هو أن يكون صادقَ العاطفة . . . وفي شعر رشيد ايوب عاطفة صادقة تنسابُ شادية مترعة السيابَ الجدول بين الأودية والمنخفضات . وعندي ان صاحب — أغاني الدرويش — الذي كتب اشعاره بدم فؤاده وقدَّمها الى النفوس الموحشة ، المتألمة ، العطشى الى الحبِّ والسعادة ، سيبقى معروفاً بطابعهِ الخاصِّ في الشعر العربي ، وسوف تزلفُ القلوبُ والارواح رحيقاً مسكراً من اغانيه — تلك (الاغاني) التي عشتُ فيها ساعة من أروع سوانح الحياة فأمتعتني بالرؤى ، وأسبغتني بالاحلام ! !

البرازيل يوسف الجيني